يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور، ولا يقتصر ذكاؤها على النظر على عقربَي الساعة لإدراك الميعاد!

وفي الحق أن سارة قد بهرت همام بأشياء كثيرة في أول زياراتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد.

فلو كانت تعرف ما يروقه ويستهويه من النساء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحانًا عسيرًا وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التي ليس بعدها تزكية، والشهادة التي ليس فوقها شهادة.

هو قليل المرح، فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلفٍ ولا مبالغة، ويسمى المرح الذي يزين المرأة ويشوق الرجل مرحًا «موقعًا» تشبيهًا له بالغناء الذي ينطلق انطلاقًا وينبعث انبعاثًا ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف، ويسكن حينما يطيب منه السكون؛ يقف ويسكن لا على اقتضابٍ موحشٍ وانقطاعٍ ناشزٍ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن، أو على قافية تختم البيت بعد البيت، فهو الوقوف الذي يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع.

وهو يحب من المرأة الزينة التي تغري من يبصرها إغراء لا يخفى، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لَمْ تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان.

وهو يحب المرأة التي تدرك الفكاهة، ويكره التي تتخذ من فكاهتها صناعةً أو معرضًا مفتوحًا في كل ساعة، وأقرب دليل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل «نيتشه» الذي يقول إن الضحك من نكتةٍ واحدةٍ هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين في المزاج والتفكير، وما انفصل اثنان بفاصلٍ هو أبعد من ابتعادهما في تمييز النكات.

وهو يحب ربة البيت التي تكون أول خادمة فيه لأنها سيدته الوحيدة، ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحتقر الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره.

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون «إنسانًا» في بعض الأوقات بمعزلٍ عن الأنوثة والذكورة، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة.

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة في أقل من ساعة، يوم جاءته في أول زيارة.

جاءته في زينةٍ تلفت العين إلى كل مزيةٍ في جسدها، ولا تلفت النظر إلى عيبٍ في نفسها.

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت إلى أثاث الحجرة تضعه في مواضعه التي تهواها، وإلى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذي تود أن تراه، وإلى المطبخ تجول